تأملات في الواقع المأزوم للمدرسة العربية

علي أسعد وطفة

مجلة دراسات عربية

مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية

تصدر عن دار الطليعة في بيروت

العدد 6/5 آذار نيسان،

السنة الثانية والثلاثون، 1990.

(صص 22-26)

http://edusocio.net

دراسات عربية

مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية

تصدر شهرياً عن دار الطليعة - بيروت - ص.ب ١١١٨١٣ / ١١٨٣٣١

تأملات في الواقع المأزوم للمدرسة العربية

□ د. علي وطفة*

مقدمة:

هل شاخت المدرسة العربية حقاً؟ هل فقدت صلتها بالحياة الاجتماعية أو بالاحرى هل استطاعت ان تجد صلتها بالحياة الاجتماعية يوماً؟ هل تحولت إلى أداة جمود وتعطيل؟ وهل يُمكن لها أن تجاري التغير المتسارع في مجال الحياة الاجتماعية والثقافية؟ وفي النهاية، هل يُمكن تثويرها على نحو شامل بما ينسجم مع مهمات جديدة ووظائف متجددة؟ عسانا إذن أن نوفّق في إلقاء نظرة نقدية تأملية على مسألة العلاقة بين المدرسة والحياة بما ينسجم مع الرغبة في الإجابة على الأسئلة المطروحة أعلاه.

كانت المدرسة كما يصوِّرها مارشال ماكلوهان المكان الذي يأتيه الناس لإمتاع النفس بما يوجد فيها من أشياء رائعة جميلة كالبطاقات الجغرافية والحيوانات والهياكل العظمية والجماجم[1]. ولكن العالم الخارجي يفوقها اليوم جمالاً وغنى، وذلك بما يحتويه من أدوات اتصال وترفيه كالراديو والتلفزيون والسينما وغير ذلك من أشياء جميلة. إن الهوّة التي تفصل بين عالم المدرسة والحياة الاجتماعية، بين عالم المدرسة الداخلي وعالمها الخارجي، يدفع الأطفال والشباب إلى رفض المدرسة وهم يرددون اليوم: إننا لا نريد أن نُسجن هنا في المدرسة كي ننسى ما تعلمناه خارجها.

إن إعادة بناء المدرسة العربية وفقاً لمبدأ الأشياء الجميلة يُشكّل اليوم ضرورةً اجتماعيةً وتربويةً بالغة الأهمية والإلحاح. ويعني ذلك إعادة التوازن بين عالم المدرسة والحياة بما يُضفي على الحياة المدرسية من جماليات يشتمل عليها العالم الخارجي. إن هدم الهوّة القائمة بين المدرسة والحياة مسألة من أهمّ المسائل التي تطرح نفسها على الفكر التربوي المعاصر الذي يسعى إلى إيجاد الصيغ الفكرية والكيفيات المناسبة التي يُمكنها أن تحقّق الوحدة الشاملة بين العالمين.

لقد قُدِّر للمدرسة في عهود شبابها أن تلعب دوراً حيوياً في بناء الحضارة والمدنية. وشكّلت في مراحل تاريخية متعاقبة أداةً هامةً للتجديد والنهوض الحضاريين. ولكنها اليوم بدأت تفقد تألقها وحيويتها إزاء ما يجري في العالم من تجديد متسارع ومتواتر في ميادين الحياة الاجتماعية والثقافية

والتكنولوجية كافة. فالمدرسة لم تفقد وظيفتها كأداة للتجديد والنهوض فحسب، وإنما بدأت تتحول في غالب الأحيان إلى أداة جمود وتعطيل. فأصابع الاتهام توجّه إليها، والبعض يدعو إلى إزالتها وطرح شعار اللامدرسية بذريعة فقدان المدرسة مبررات وجودها وتحوّلها إلى أداة سياسية وأيديولوجية وطبقية[٢]. ويذهب أكثر المفكّرين التربويين اليوم إلى ضرورة تجديد الأطر المدرسية وتثوير بُنيتها على المستوى الاجتماعي، وذلك بما من شأنه أن يلبّي الحاجة إلى الممارسات الخلاقة والمبدعة التي يُمكن للمدرسة أن تقوم بها في عصر دائم التغيُّر.

الواقع الراهن للمؤسسة المدرسية:

تُكرِّس المدرسة في بنيتها الحالية التكوين الهرمي الموروث من الكنيسة والذي تأخذ فيه المعرفة خطاً أحادياً نازلاً يبدأ من رأس الهرم ليصل إلى قاعدته، أي من المعلم إلى التلميذ. ويقوم المعلمون بعملهم التربوي بتحويل المعرفة نفسها الى أجيال متلاحقة ومتعاقبة[٣]. والمبدأ الأساسي في منهج نقل هذه المعلومات والمعارف هو الاستظهار وحشو الذاكرة بما هو مفيد أو غير مفيد والذي يشير إلى غياب مبدأ التغذية الراجعة، ومبدأ مشاركة التلاميذ ومساهمتهم في العمل التربوي. فالعمل التربوي في المدرسة يجري وفقاً لمبدأ تايلور الصناعي الذي يقضي بأن تقوم المدرسة بإنتاج عدد أكبر من الناس ممن يحملون مؤهلات مدرسية، وذلك لطرحهم بالسرعة الممكنة في سوق العمل.

تُقسم المعرفة في مدارسنا إلى أجزاء متناهية في الصغر تُقدم إلى التلاميذ بعد أن يتمّ مضغها بشكل مسبق. وذلك يُشكّل محور العمل التربوي في مؤسساتنا المدرسية، وهنا بالتحديد يكمن جانب كبير من الأزمة التربوية المعاصرة لمدرسة اليوم.

في بنية المدرسة هذه نجد ما يُمكننا تسميته بالنزعة الكارزمية، نزعة التسلّط، التي تُعتبر إحدى السمات الأساسية للمعلمين في المدارس والمؤسسات التربوية المختلفة. فالتسلّط هو المبدأ الأساسي في عملنا التربوي وهو مبدأ يتنافى مع مبدأ الإدارة الذاتية، وهو المبدأ الديمقراطي الذي يجد تكريساً له في أغلب المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية في عالمنا المعاصر.

لقد تحوّلت مدارسنا إلى آلات تمنح شهادات مدرسية. وأصبحت الشهادة الهدف الأساسي والمحوري للتلاميذ والطلاب والمدرسة نفسها. ومدرستنا هذه تمنح بطاقات دخول إلى الحياة الاجتماعية، وهي في كل الأحوال تسعى إلى إعداد أناس من أجل كل شيء ولكنها لا تقوم بإعداد أناس من أجل أنفسهم ومن أجل تحقيق توازنهم الروحي والنفسي.

وأخيراً، ألا يحق لنا أن نقول إن مناهج المؤسسة المدرسية غريبة عما يجري في حياتنا؟ ألا يُمكن لنا أيضاً أن نقول إنها لا تستطيع أن تلبّي احتياجات الأطفال، وهي في كل الأحوال غريبة بالنسبة لما يعيشونه من أحداث الحياة اليومية وبعيدة جداً عن مجال الحياة اليومية وبعيدة جداً عن مجال اهتماماتهم. وإذا كانت المدرسة كما وصفناها أعلاه، أليس بمقدورنا أن نصفها بأنها مدرسة تُعاني من الجمود والتصلّب ولأن العملية التربوية تتمّ فيها وفق مبدأ الدخول من طرف والخروج من طرف آخر. وحين ينطبق ما قُلناه على واقع المؤسسة المدرسية فإنه لمن المنطقي أن نقول بأنها مدرسة تُعاني من الشيخوخة، ولا بد لنا من أجل حياة علمية أفضل أن نسعى إلى تثوير أُطرها التقليدية وتفجير عوامل جمودها وتصلّبها من أن نعيد لها وظيفتها الأساسية في بناء الحضارة والمدنية وفي

أجل أن نضفي على حياة أطفالنا بهجة الحياة المدرسية وأن نحقق لهم تربية مدرسية تنسجم مع اهتماماتهم وتطلعاتهم الحياتية والاجتماعية.

نحو مدرسة عربية من أجل الحياة:

لا تكمن وظيفة المدرسة في نقل المعارف العلمية الموجودة في بطون الكتب فحسب بل في عملية دمج هذه المعارف في أوساط المعنيين بها، ومن ثم تحقيق التكامل بين هذه المعرفة والوسط الذي يعيش فيه الأطفال والناشئة، ثم تمكينهم من توظيف هذه المعرفة واختبارها في إطار المحيط الذي يعيشون فيه. ولكي تصبح المدرسة أداةً حضارية فاعلة، فإنه لمن الضرورة بمكان أن يتمّ هدم الحواجز التي تفصلها عن الحياة الاجتماعية. فهي ليست مكاناً بين أربعة جدران يأتيه التلاميذ لنسيان ما تعلّموه في سياق حياتهم الاجتماعية خارج المدرسة.

إن الهوّة القائمة بين المدرسة والحياة هي تعبيرٌ عن التباعد الكبير بين الموضوعات التي تطرحها المدرسة في مناهجها العلمية والحياة الحقيقية التي تحيط بالأطفال والناشئة. ولردم هذه الهوّة القائمة، لا بد من إعادة النظر في طبيعة المناهج القائمة، ووضع المناهج التي تنسجم مع تطلعات الأطفال واهتماماتهم التي تولد في إطار حياتهم الاجتماعية والثقافية. فالموضوعات المدرسية يجب أن تتصل بحياة الناس والتلاميذ، وهي الموضوعات التي تقع في إطار الاقتصاد والبيئة والبيولوجيا والزراعة والغذاء والإنتاج والأمراض والصناعة... وهي القضايا التي تحيط بحياتهم الاجتماعية وتكتنفها.

هذا ويُمكن الربط بين المدرسة والحياة أن يتم أيضاً عبر مشاريع تربوية متكاملة ترتكز على مشاركة التلاميذ والطلاب بدرجة عالية من المسؤولية، وذلك من أجل تجسيد المعرفة النظرية في إطار الواقع الحياتي الذي يعيشونه. ويُمكن لهذه المشاريع أن تجري في الحقل الاجتماعي حيث يقوم الطلاب والناشئة وعبر برامج متطوّرة وهادفة بتحقيق عملية الربط بين ما تعلّموه وما يريدون تحقيقه في حياتهم. ويكون ذلك على الأغلب بتنظيم رحلات علمية متنوّعة حيث تُتاح لهم فرصة دراسة التاريخ بزيارة أوابده وآثاره القائمة ودراسة الجغرافية على صفحات الطبيعة، ومن خلال مشاركتهم الحقيقية في أعمال عديدة حرفية ومهنية وإدارية في إطار المؤسسات المتخصّصة والقائمة في إطار الواقع الاجتماعي النابض بالحياة. ومن شأن ذلك كله في النهاية أن يُساعد في هدم الحواجز والحدود القائمة بين المدرسة والحياة كما من شأنه تحقيق عملية التكامل والتفاعل بين المعرفة النظرية والمعرفة العملية الحيّة.

نحو استراتيجية لتثوير المدرسة:

إذا كانت المدرسية تُعاني حقاً من مرض الشيخوخة في بناها ووظائفها، وإذا أُريد لها أن تخرج حقاً من دائرة جمودها وتصلّبها يجب علينا أن نطرح استراتيجية متكاملة ومتناسقة لعملية تثوير شامل. ومن أجل تحديد مستويات وأبجديات هذه الاستراتيجية يجب علينا، بادىء ذي بدء، أن نعمل على دراسة بنية المدرسة دراسةً علميةً متكاملةً تشمل مناهجها ووظائفها والقائمين على العملية التربوية فيها. يجب أن نحدّد مناطق التأثير الحيوية والهامّة في بُنيتها، وهي المحاور التي يُمكننا أن نؤثر فيها من أجل تفجير الأطر التقليدية للمدرسة وتثويرها بما ينسجم مع طبيعة العصر الذي نعيش

ومن أجل أن تُحقّق المؤسسة المدرسية أصالتها وهويتها الذاتية وإمكانية الاستمرار في الوجود وإسقاط السمة التقليدية التي تثقل وجودها، لا بد للقائمين على إعداد الخطط والمناهج التربوية في مستوياتها العليا أن يكرّسوا جهودهم الحيوية لإخراج النظام المدرسي من دائرة عزلته وتقوقعه وجموده وتصلّبه، وذلك من أجل أن نُفسح المجال الرحب للمدرسة كي تصبح الأداة الحضارية القادرة على الفعل والتجديد.

المطلوب من القائمين على عملية التخطيط مضاعفة الجهود لإيجاد البدائل الحضارية للمناهج التربوية التقليدية، وهي البدائل التي تنسجم مع طبيعة العصر وطبيعة التغيّرات الجارية في ميادينه المختلفة.

إن أحد المحاور الأساسية نحو استراتيجية ثورية في البنية المدرسية هو أن نعمل على تكريس النزعة الديمقراطية في العلاقة القائمة بين المعلّم والتلاميذ كبديل للعلاقة التي تقوم على مبدأ النزعة الكارزمية التسلّطية التي تسود وتهيمن في المدرسة التقليدية. فالعلاقة الديمقراطية في إطار المؤسسة المدرسية مطلبٌ تربوي ملحّ تقتضيه ضرورة خلق الطاقات والفعاليات المبدعة عند الأطفال والناشئة ووضعهم في موضع الإحساس بالمسؤولية وتعزيز الثقة بالذات والقدرة على المبادرة والفعل، وهو مبدأ يجد تكريساً له في الكثير من الأنظمة التربوية المعاصرة.

في المدرسة التقليدية يبرز مبدأ استظهار الدروس كمحور أساسي من محاور العمل التربوي. والاستظهار (الحفظ عن ظهر قلب) كما يقول مونتين ليس بمعرفة، ونحن عندما نطلب من الأطفال استظهار دروسهم نحشو ذاكرتهم ونترك العقل فارغاً وخاوياً[1]. إن البديل لمبدأ الاستظهار وحشو الذاكرة يكون بتطوير قدرة الطفل على المحاكمة والتفكير وتطوير قدرته على الحوار، وهذا يحتاج في نهاية الأمر إلى المناخ الديمقراطي بين المعلم والتلميذ وإلى نمط من العلاقات الأفقية المتوازنة ذات الطابع الديمقراطي بين المعلم والتلاميذ والأولياء والإدارة والسلطات المحلية.

إن نظاماً ما لا يكتفي من أجل استمراريته بما يأخذه من العالم الخارجي فحسب، وإنما من خلال خصوصيته الديناميكية أيضاً. ويتجلّى ذلك على المستوى المدرسي في التفاعل الذي يقوم بين المعلمين والتلاميذ في الإدارة الذاتية للمدرسة وفي قدرتهم على الاستجابة الفورية لمواجهة الصعوبات والمشكلات التي تعترضهم في مجال حياتهم اليومية وذلك بتوظيف ما تعلّموه واكتسبوه في إطار الحياة المدرسية. إذ لا يجب أن نكون في المدرسة من أجل أن نتعلم فحسب، وإنما من أجل أن نوجّه حياتنا وننظمها وفق ما تعلمناه.

إن النظام المغلق هو النظام الذي يُحافظ على نفسه ووجوده وفقاً لمبدأ التصلّب، وعلى العكس من ذلك يحافظ النظام المفتوح على وجوده وفقاً لمبدأ المرونة والاتصال مع العالم الخارجي. إن قطعة من الزجاج تُحافظ على وجودها واستمرارها وفقاً لمبدأ التصلّب أي لكونها صلبة، وحين ترتفع درجة الحرارة فإنها تتعرض للانفجار. وعلى العكس من ذلك، فإن الخلية الحيّة تُحافظ على وجودها وفقاً لمبدأ المرونة والتكيّف مع العالم الخارجي.

من أجل مدرسة قادرة على التكيّف مع الوسط الخارجي يجب علينا، إذن، ان نكرّس مبدأ الخلية الحيّة في حركتها وفي مرونة اتصالها مع العالم الخارجي؛ وفي النهاية يُمكننا أن نقول بأن [illegible] المعلمين والمدرّسين والهيئات الإدارية

والمناهج يمثلون المحاور الأساسية في استراتيجية التغيير الشاملة نحو مدرسة للحياة ومن أج
وهي المناطق التي يجب علينا أن نثوّرها وفقاً لمبدأ التأبير الاجتماعي، وهذا يعني وخز المذ
الحسّاسة في النظام التربوي في آن واحد من أجل إثارته وإخراجه من دائرة جموده وتصلّبه
يُحقّق ما نسعى إليه من هدم الهوّة القائمة بين المدرسة والحياة، وبما من شأنه أن يُعيد للمد
دورها الحقيقي في بناء الحضارة والمساهمة في بناء الانسان القادر على الإبداع والتجديد.

- مراجع أخرى -

مارسيل بوستيك، **العلاقة التربوية**، ترجمة محمد بشير النحاس، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقا
والعلوم، ١٩٩١.

عبدالله عبد الدايم، «من التسيير الذاتي للمجتمع إلى التسيير الذاتي للمدرسة»، **المعلم العربي**، السنة السادة
والعشرون، العدد الخامس - أيار (مايو)، ١٩٧٣.

Ivan de Coste, *Socologie de L'education*, Bruxelles, 1970.

nauld Clausse, *Initiation aux sciences de l'education*, Liège, Belgique, 1967.

رونيه أوبيرت، **التربية العامة**، ترجمة عبدالله عبد الدايم، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٢.

جون ديوي، **المدرسة والمجتمع**، ترجمة أحمد حسن الرحيم/ محمد ناصر، بيروت، دار مكتبة الحياة، (من
تاريخ).